

لطائف المعارف

ثلاث دلائل على سبق ذكر النبي صلى الله عليه وسلم و التنويه باسمه و نبوته .
الدليل الأول : دعوة أبيه إبراهيم عليه السلام و أشار إلى ما قص الله في كتابه عن إبراهيم و إسماعيل لأنهما قالا عند بناء البيت الذي بمكة : { ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم * ربنا و اجعلنا مسلمين لك و من ذريتنا أمة مسلمة لك و أرننا مناسكنا و تب علينا إنك أنت التواب الرحيم * ربنا و ابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك و يعلمهم الكتاب و الحكمة و يزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم } فاستجاب الله دعاءهما و بعث في أهل مكة منهم رسولا بهذه الصفة من ولد إسماعيل الذي دعا مع أبيه إبراهيم عليهما السلام بهذا الدعاء و قد امتن الله تعالى على المؤمنين ببعثه لهذا النبي منهم على هذه الصفة التي دعا بها إبراهيم و إسماعيل قال تعالى : { لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوا عليهم آياته و يزكيهم و يعلمهم الكتاب و الحكمة و إن كانوا من قبل لفي ضلال مبين } و قال سبحانه : { هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته و يزكيهم و يعلمهم الكتاب و الحكمة و إن كانوا من قبل لفي ضلال مبين * و آخرين منهم لما يلحقوا بهم و هو العزيز الحكيم * ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء و الله ذو الفضل العظيم } و معلوم أنه لم يبعث من مكة رسول فيهم بهذه الصفة غير محمد صلى الله عليه وسلم و هو ولد إسماعيل كما أن أنبياء بني إسرائيل من ولد اسحاق و ذكر تعالى : أنه من على المؤمنين بهذه الرسالة فليس نعمه أعظم من إرسال محمد صلى الله عليه وسلم يهدي إلى الحق و إلى طريق مستقيم و قوله في الأميين و المراد بهم العرب : تنبيه لهم على قدر هذه النعمة و عظمها حيث كانوا أميين لا كتاب لهم و ليس عندهم شيء من آثار النبوات كما كان عند أهل الكتاب فمن الله عليهم بهذا الرسول و بهذا الكتاب حتى صاروا أفضل الأمم و أعلمهم و عرفوا ضلالة من ضل من الأمم قبلهم .

و في كونه منهم فائدتان : .

إحداهما : أن هذا الرسول كان أيضا أميا كأمته المبعوث إليهم لم يقرأ كتابا قط و لم يخطه بيمينه كما قال تعالى : { و ما كنت تتلو من قبله من كتاب و لا تخطه بيمينك } الآيات و لا خرج عن ديار قومه فأقام عند غيرهم حتى تعلم منهم شيئا بل لم يزل أميا بين أمة أمية لا يكتب و لا يقرأ حتى كمل الأربعين من عمره ثم جاء بعد ذلك بهذا الكتاب المبين و هذه الشريعة الباهرة و هذا الدين القيم الذي اعترف حذاق أهل الأرض و نظارهم أنه لم يقرع العالم ناموس أعظم منه و في هذا برهان ظاهر على صدقه .

و الفائدة الثانية : التنبيه على أن المبعوث منهم - و هم الأميون خصوصا أهل مكة - يعرفون نسبه و شرفه و صدقه و أمانته و عفته و أنه نشأ بينهم معروفا بذلك كله و أنه لم يكذب قط فكيف كان يدع الكذب على الناس ثم يفتري الكذب على الله عز و جل فهذا هو الباطل و لذلك سأل هرقل عن هذه الأوصاف و استدل بها على صدقه فيما ادعاه من النبوة و الرسالة .

و قوله تعالى : { يتلو عليهم آياته } يعني يتلو عليهم ما أنزله الله عليه من آياته المتلوة و هو القرآن و هو أعظم الكتب السماوية و قد تضمن من العلوم و الحكم و المواعظ و القصص و الترغيب و الترهيب و ذكر أخبار من سبق و أخبار ما يأتي من البعث و النشور و الجنة و النار ما لم يشتمل عليه كتاب غيره حتى قال بعض العلماء لو أن هذا الكتاب وجد مكتوبا في مصحف في فلاة من الأرض و لم يعلم من وضعه هناك لشهدت العقول السليمة أنه منزل من عند الله و أن البشر لا قدرة لهم على تأليف ذلك فكيف إذا جاء على يدي أصدق الخلق و أبرهم و أتقاهم و قال إنه كلام الله و تحدى الخلق كلهم أن يأتوا بسورة مثله فعجزوا فيه فكيف مع هذا شك و لهذا قال تعالى : { ذلك الكتاب لا ريب فيه } و قال : { أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم } فلو لم يكن لمحمد صلى الله عليه و سلم من المعجزات الدالة على صدقه غير هذا الكتاب لكفاه فكيف و له من المعجزات الأرضية و السماوية ما لا يحصى .

و قوله : { و يزكيهم } : يعني إنه يزكي قلوبهم و يطهرها من أدناس الشرك و الفجور و الضلال فإن النفوس تزكوا إذا طهرت من ذلك كله و من زكت نفسه فقد أفلح كما قال تعالى : { قد أفلح من زكاها } و قال : { قد أفلح من تزكى } و قوله : { و يعلمهم الكتاب و الحكمة } : يعني بالكتاب : القرآن و المراد و يعلمهم تلاوة ألفاظه و يعني بالحكمة : فهم معاني القرآن و العمل بما فيه فالحكمة هي : فهم القرآن و العمل به فلا يكفي بتلاوة ألفاظ الكتاب حتى يعلم معناه و يعمل بمقتضاه فمن جمع له ذلك كله فقد أوتي الحكمة قال تعالى : { يؤتي الحكمة من يشاء و من يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا } قال الفضيل : العلماء كثير و الحكماء قليل و قال : الحكماء ورثة الأنبياء فالحكمة هي العلم النافع الذي يتبعه العمل الصالح و هو نور يقذف في القلب يفهم بها معنى العلم المنزل من السماء و يحض على اتباعه و العمل به و من قال الحكمة : السنة فقولته الحق لأن السنة تفسر القرآن و تبين معانيه و تحض على اتباعه و العمل به فالحكيم هو العالم المستنبط لدقائق العلم المنتفع بعلمه بالعمل به و لأبي العتاهية : .

(و كيف تحب أن تدعى حكيما ... و أنت لكل ما تهوى ركوب) .

(و تضحك دائما ظهرا لبطن ... و تذكر ما عملت فلا تتوب) .

قوله تعال : { و إن كانوا من قبل لفي ضلال مبين } إشارة إلى ما كان الناس عليه قبل

إنزال هذا الكتاب من الضلال فإن الله نظر حينئذ إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم و عجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب تمسكوا بدينهم الذي لم يبدل و لم يغير و كانوا قليلا جدا فأما عامة أهل الكتاب فكانوا قد بدلوا كتبهم و غيروها و حرفوها و أدخلوا في دينهم ما ليس منه فضلوا و أضلوا و أما غير أهل الكتاب فكانوا على ضلال بين فالأميون أهل شرك يعبدون الأوثان و المجوس يعبدون النيران و يقولون بالهين اثنين و كذلك غيرهم من أهل الأرض منهم من كان يعبد النجوم و منهم من كان يعبد الشمس أو القمر فهدى الله المؤمنين بإرسال محمد صلى الله عليه و سلم إلى ما جاء به من الهدى و الدين الحق و أظهر الله دينه حتى بلغ مشارق الأرض و مغاربها فظهرت فيها كلمة التوحيد و العمل بالعدل بعد أن كانت الأرض كلها ممتلئة من الشرك و الظلم فالأميون هم العرب و الآخرون الذي لم يلحقوا بهم هم أهل فارس و الروم فكانت أهل فارس مجوسا و الروم نصارى فهدى الله جميع هؤلاء برسالة محمد صلى الله عليه و سلم إلى التوحيد و قد رؤي الإمام بعد موته في المنام فسئل عن حاله فقال : لولا النبي لكنا مجوسا قال : فإن أهل العراق لولا رسالة محمد صلى الله عليه و سلم لكانوا مجوسا و أهل الشام و مصر و الروم لولا رسالة محمد صلى الله عليه و سلم لكانوا نصارى و أهل جزيرة العرب لولا رسالة محمد صلى الله عليه و سلم لكانوا مشركين عباد أوثان و لكن رحم الله عباده بإرسال محمد صلى الله عليه و سلم فأنقذهم من الضلال كما قال تعالى : { و ما أرسلناك إلا رحمة للعالمين } و لهذا قال تعالى : { ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء و الله ذو الفضل العظيم } فمن حصل له نصيب من دين الإسلام فقد حصل له الفضل العظيم و قد عظمت عليه نعمة الله فما أحوجه إلى القيام بشكر هذه النعمة و سؤاله دوامها و الثبات عليها إلى الممات و الموت عليها فبذلك تتم النعمة .

فإبراهيم عليه الصلاة و السلام هو إمام الحنفاء المأمور محمد صلى الله عليه و سلم و من قبله من الأنبياء و الاقتداء به و هو الذي جعله للناس إماما و قد دعا هو و ابنه إسماعيل بأن يبعث الله في أهل مكة رسولا منهم موصوفا بهذه الأوصاف فاستجاب الله لهما و جعل هذا النبي مبعوثا فيهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم كما دعيا بذلك و هو النبي الذي أظهر دين إبراهيم الحنيف بعد اضمحلاله و خفائه على أهل الأرض فلهذا كان أولى الناس بإبراهيم كما قال تعالى : { إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه و هذا النبي و الذين آمنوا } و قال صلى الله عليه و سلم : [إن لكل نبي وليا من المؤمنين و أنا ولي إبراهيم] ثم تلا هذه الآية و كان صلى الله عليه و سلم أشبه ولد إبراهيم به صورة و معنى حتى إنه أشبهه في خلة الله تعالى فقال : [إن الله اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا] .

و الثاني بشارة عيسى به : و عيسى آخر أنبياء بني إسرائيل و قد قال تعالى : { و إذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة و مبشرا

برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد } و قد كان المسيح عليه الصلاة و السلام يحض على اتباعه و يقول : إنه يبعث السيف فلا يمنعكم ذلك منه و روي عنه أنه قال : سوف أذهب أنا و يأتي الذي بعدي لا يتحمدكم بدعواه و لكن يسلم السيف فتدخلونه طوعا و كرها و في المسند [عن أبي الدرداء B عن النبي صلى الله عليه و سلم : إن الله عز و جل أوحى إلى عيسى عليه السلام أنني باعث بعدك أمة إن أصابهم ما يحبون حمدوا و شكروا و إن أصابهم ما يكرهون احتسبوا و صبروا و لا حلم و لا علم قال : يا رب كيف هذا و لا حلم و لا علم ؟ قال : أعطيتهم من حلمي و علمي] قال ابن اسحاق حدثني بعض أهل العلم : أن عيسى بن مريم عليه السلام قال : إن أحب الأمم إلى الله عز و جل لأمة أحمد قيل له : و ما فضلهم الذي تذكر ؟ قال : لم تذلل لا إله إلا الله على ألسن أمة من الأمم تذليلها على ألسنتهم .

الثالث : مما دل على نبوته قبل ظهوره : رؤيا أمه التي رأت أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام و ذكر أن أمهات النبيين كذلك يرين و الرؤيا هنا إن أريد بها رؤيا المنام فقد روي أن آمنة بنت وهب رأت في أول حملها بالنبي صلى الله عليه و سلم أنها بشرت بأنه يخرج منها عند ولادتها نور يضيء له قصور الشام وروي الطبراني بإسناده [عن أبي مريم الكندي عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه سئل : أي شيء كان أول من أمر نبوتك ؟ قال : أخذ الله مني الميثاق كما أخذ من النبيين ميثاقهم و تلا : { و منك و من نوح } الآية و بشرى المسيح عيسى بن مريم و رأت أم رسول الله صلى الله عليه و سلم في منامها أنه خرج من بين يديها سراج أضاءت لها من قصور الشام ثم قال : و وراء ذلك قريتين أو ثلاثا] و إن أريد بها رؤية عين كما قال ابن عباس في قول الله عز و جل : { و ما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس } إنها رؤية عين أريها النبي صلى الله عليه و سلم ليلة أسري به فقد روي أن أمه رأت ذلك عند ولادة النبي صلى الله عليه و سلم قال ابن اسحاق : كانت آمنة بنت وهب تحدث أنها أتيت حين حملت برسول الله صلى الله عليه و سلم فقيل لها إنك حملت بسيد هذه الأمة فإذا وقع إلى الأرض فقولني أعينه بالواحد من شر كل حاسد و آية ذلك أن يخرج معه نور يملأ قصور بصرى من أرض الشام فإذا وقع فسميه محمدا فإن اسمه في التوراة أحمد يحمده أهل السماء و أهل الأرض و اسمه في الإنجيل أحمد يحمده أهل السماء و أهل الأرض و اسمه في القرآن محمد و ذكر ابن سعد عن الواقدي بأسانيد له متعددة : أن آمنة بنت وهب قالت : لقد علقت به تعني النبي صلى الله عليه و سلم فما وجدت له مشقة حتى وضعته فلما فصل مني خرج معه نور أضاء له ما بين المشرق و المغرب ثم وقع إلى الأرض معتمدا على يديه ثم أخذ قبضة من التراب فقبضها و رفع رأسه إلى السماء و في حديث بعضهم : وقع جاثيا على ركبتيه و خرج معه نور أضاءت له قصور الشام و أسواقها حتى رأت أعناق الإبل ببصرى رافعا رأسه إلى السماء و روى البيهقي بإسناده [عن عثمان بن أبي العاص حدثني أمي أنها شهدت ولادة آمنة بنت وهب رسول الله صلى

ا] عليه و سلم ليلة ولدته قالت : فما شيء أنظر إليه إلا نور و إني أنظر إلى النجوم تدنو حتى أني لأقول ليقعن علي] .

و خرج الإمام أحمد [من حديث عتبة بن عبد السلمي عن النبي صلى ا] عليه و سلم : أن أمه قالت : إني رأيت خرج مني نور أضاءت منه قصور الشام] و روى ابن اسحاق [عن جهم بن أبي جهم عن عبد ا] بن جعفر عن حدث عن سليمة أم النبي صلى ا] عليه و سلم التي أرضعته أن آمنة بنت وهب حدثتها أنها قالت : إني حملت به فلم أر حملا قط كان أخف علي منه و لا أعظم بركة منه لقد رأيت نورا كأنه شهاب خرج مني حين وضعته أضاءت له أعناق الإبل ببصرى] و خروج هذا النور عند وضعه إشارة إلى ما يجيء به من النور الذي اهتدى به أهل الأرض و زال به ظلمة الشرك منها كما قال تعالى : { قد جاءكم من ا] نور و كتاب مبين * يهدي به ا] من اتبع رضوانه سبل السلام و يخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه و يهديهم إلى صراط مستقيم } و قال تعالى : { فالذين آمنوا به و عزروه و نصروه و اتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون } و في هذا المعنى يقول العباس في أبياته المشهورة السائرة : .

(و أنت لما ولدت أشرق الأرض ... و ضاءت بنورك الأفق) .

(فنحن في ذلك الضياء و في النـ ... و سبل الرشاد نخترق) .

و أما إضاءة قصور بصرى بالنور الذي خرج معه فهو إشارة إلى ما خص الشام من نور نبوته بأنها دار ملكه كما ذكر كعب أن في الكتب السابقة محمد رسول ا] مولده بمكة و مهاجره يثرب و ملكه بالشام فمن مكة بدئت نبوة محمد صلى ا] عليه و سلم و إلى الشام ينتهي ملكه و لهذا أسري به صلى ا] عليه و سلم إلى الشام إلى بيت المقدس كما هاجر إبراهيم عليه الصلاة و السلام من قبله إلى الشام قال بعض السلف : ما بعث ا] نبيا إلا من الشام فإن لم يبعثه منها هاجر إليها و في آخر الزمان يستقر العلم و الإيمان بالشام فيكون نور النبوة فيها أظهر منه في سائر بلاد الإسلام .

و خرج الإمام أحمد من حديث عبد ا] بن عمرو بن العاص و أبي الدرداء و خرج الحاكم من حديث عبد ا] بن عمرو بن العاصBهما [عن النبي صلى ا] عليه و سلم قال : رأيت عمود الكتاب انتزع من تحت و سادتي فأتبعته بصري فإذا هو عمود ساطع عمد به إلى الشام ألا و إن الإيمان إذا وقعت الفتن بالشام] .

و في المسند و الترمذي و غيره [عن النبي صلى ا] عليه و سلم قال : ستكون هجرة بعد هجرة فخير أهل الأرض ألزمهم مهاجر إبراهيم يعني الشام و بالشام ينزل عيسى بن مريم عليه السلام في آخر الزمان و هو المبشر بمحمد صلى ا] عليه و سلم و يحكم به و لا يقبل من أحد غير دينه فيكسر الصليب و يقتل الخنزير و يضع الجزية و يصلي خلف إمام المسلمين و يقول : إن هذه الأمة أئمة بعضهم لبعض] إشارة إلى أنه متبع لدينهم غير ناسخ له و الشام هي في

آخر الزمان أرض المحشر و المنشر فيحشر الناس إليهم قبل القيامة من أقطار الأرض فيهاجر خيار أهل الأرض إلى مهاجر إبراهيم و هي أرض الشام طوعا كما تقدم أن خيار أهل الأرض ألزمهم مهاجر إبراهيم و قال صلى الله عليه و سلم : [عليكم بالشام فإنها خيرة] من أرضه يجتبي إليها خيرته من عباده [خرج الإمام أحمد و أبو داود و ابن حبان و الحاكم في صحيحهما و قال أبو أمامة : لا تقوم الساعة حتى ينتقل خيار أهل العراق إلى الشام و شرار أهل الشام إلى العراق و خرج الإمام أحمد .

و قد ثبت في الصحيحين [عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال : لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز فتضيء لها أعناق الإبل ببصرى] و قد خرجت هذه النار بالحجاز بقرب المدينة و رؤيت أعناق الإبل من ضوءها ببصرى في سنة أربع و خمسين و ستمائة و عقيبها جرت واقعة بغداد و قتل بها الخليفة و عامة من كان ببغداد و تكامل خراب أهل العراق على أيدي التتار و هاجر خيار أهلها إلى الشام من حينئذ فأما شرار الناس فتخرج نار في آخر الزمان تسوقهم إلى الشام فهرا حتى تجتمع الناس كلها بالشام قبل قيام الساعة .

و في سنن أبي داود [عن أبي الدرداء B عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : إن فسطاط المسلمين يوم الملحمة بالغوطة إلى جانب مدينة يقال لها دمشق من خير مدائن الشام] و خرج الحاكم و لفظه : [خير منازل المسلمين يومئذ]